



التصوف الإسلامي ، رؤية مستقبلية

د . ربيعة الطاهر عريبي
جامعة الفاتح

التصوف الإسلامي الأصيل المستقى من المنابع الإسلامية « القرآن والسنة »، والبعيد عن المؤثرات الخارجية ، يعتبر مصدراً مهماً من مصادر الحياة الروحية في الإسلام ، بما يمكن أن يقوم به من تفعيل لأخلاق الإسلام الإنسانية الرائعة ، وإطلاق لقوة العمل البناء عند الإنسان المسلم .

ولكن التصوف الإسلامي لم يحافظ على نقائه وأصالته ، لاستعانة بعض الصوفية بأفكار بعيدة عن الإسلام ، مما وسم التجربة الصوفية لديهم ، بسمة الشطح والبعد عن الدين ، والزندقة ، وإظهار الخوارق والكرامات والبدع .

لذلك فإنني هنا سأقوم باستعراض وضع التصوف الإسلامي من حيث الاسم ، ومن حيث التطور التاريخي ، بشكل سريع ، ليس من وجهة نظر نقدية، بل لتبرير وجهة نظري حول التصوف ، كونه ظاهرة إنسانية قابلة لإعادة التشكل ذاتيا بحسب شخصية وثقافة صاحبه ، وبحسب ظروف وروح العصر . وهذا ما يشجع على المطالبة بتكثيف الجهود المخلصة من أجل الاستفادة من هذه الميزة في التصوف ، وذلك بدفع التصوف اليوم لأن يكون أكثر واقعية وعملية لمواجهة العنف الديني والسياسي الذي تتعرض له الأمة الإسلامية اليوم . وحتى يكون جبهة صامدة في وجه كل خطر صليبي .

تعدد تعريفات التصوف

للتصوف تعريفات كثيرة ، قد تصل إلى ألفي تعريف ، بشهادة الشيخ الزروق ،

الذي يقول في كتابه « قواعد الطريقة » بأن : « ماهية الشيء حقيقته ، وحقيقته ما دلت عليه جملته ، وتعريف ذلك بحد وهو أجمع ، أو رسم وهو أوضح ، أو تفسير وهو أتم لبيانه ، وسرعة فهمه . ومرجع كل تلك التعريفات التي أشار إليها الشيخ ، هو صدق التوجه إلى الله . » [1]

وكذلك نجد للصوفية رؤى مختلفة في أحوالهم وأقوالهم نحو التصوف ، فمنهم من يرى أن التصوف هو الزهد ، ومنهم من يراه في العزلة عن الحياة الاجتماعية، ومنهم من يراه شطحا فشطح ، حتى تلفظ بأقوال منافية للعقيدة الإسلامية . . . الخ .

وأيا ما كان هذا العدد أو هذه الرؤى ، فهذا يشير إلى اتساع مفهوم التصوف ، مما يؤكد وجهة نظري ، من أننا نستطيع أن نتعامل مع ظاهرة التصوف بشكل يتناسب مع ظروف العصر ، وأن ندفع بالتصوف لأن يكون فاعلا ، بدلا من أن يكون تجربة ذاتية تخص صاحبها فقط .

التصوف والأخلاق

يعرف التصوف عادة بأنه فلسفة حياة ، وطريقة معينة في السلوك، يتخذها الإنسان لتحقيق كماله الأخلاقي وتحقيق سعادته الروحية . [2] و كما قال ابن القيم الجوزي : « اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على آن التصوف هو الخلق » . [3] وعبر عنه الكتاني (ت 233) بقوله : « التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في الصفاء . » أي « التصوف » .[4]

العبارات السابقة لصوفية كبار تعطي للتصوف قيمة عالية أخلاقيا . إن ربط التصوف بالأخلاق وسيلة مهمة لتوظيف التصوف عمليا ، على اعتبار أن الأخلاق لا قيمة لها إن لم تكن عملية واقعية تخدم أهدافاً عملية دينية ودنيوية . فقد انقضى ذلك العهد الذي كانت فيه الأخلاق المجردة المعزولة عن جوانب حياة الإنسان المتنوعة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وعلميا وصحيا ، هي محور الدراسة والاهتمام .

(1) الشيخ الزروق : قواعد التصوف ، ط2 ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ص3 .

(2) الموسوعة الفلسفية لمعهد الإنماء، تحت مادة تصوف .

(3) المرجع السابق .

(4) القشيري : الرسالة ، ج2 ، ص495 .

كما أن ربط التصوف عقلانيا بالأخلاق العملية، يبعده عن الدروشة التي يتصف بها التصوف منذ عصور انحطاطه المتأخرة . وأيضا الاعتراف بوجود أساس أخلاقي واحد للتصوف الإسلامي متمثلا في صدق التوجه إلى الله باتباع الأوامر والنواهي للقرآن والسنة ، يدعو إلى الاعتراف بضرورة توظيف التصوف للقيام بمهمة الإصلاح والارتقاء بالمجتمع الإسلامي ، بدلا من أن يبقى التصوف مجرد تجربة ذوقية ذاتية خاصة بصاحبها .

كلمة "خلق" عموما يقصد بها الاتصاف بالأخلاق الحميدة، وأحمد الأخلاق ما استمد من الدين، والدين الإسلامي دين خلق ، يقول الله تعالى في وصف رسوله الكريم ﷺ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] . وأخلاق الإسلام تشتمل على أخلاق بين العبد وربه، وبينه وبين نفسه، وبينه وبين مجتمعه، وبينه وبين بيئته، وبينه وبين المجتمع الإنساني ككل . إذ يشترط في الصوفي الحق أن تشتمل معاملاته على كل هذه الشبكة من الأخلاقيات ، لأن المفروض في التصوف ليس الهروب من الواقع وإنما تكريس الجهد لصالح واقع حضاري وصحي ناهض . وكما يقول د . بدوي نقلا من بعض المراجع : (قوة التصوف الإسلامي الدائمة ليست في الانعزال المترفع المحزون الذي فيه يصبح المجذوب، بل هي في الشوق الخارق إلى التضحية في سبيل إخوانه) [2] .

التصوف والتوكل

التوكل مرتبط بالعمل ، والتوكل يكون مطلوبا اذا كان مقامه القلب ، أما أن يكون التوكل تواكلا ، كما فهمه غلاة الصوفية ، بمعنى ترك العمل وعدم الأخذ بالأسباب وترك التداوي ، وعدم توفير المال لمواجهة الزمن ، فهذا أمر مرفوض شرعا ومنطقا . إن كتب التصوف تشير الى أن كثيراً من الصوفية الغلاة يؤمنون بأن التوكل يعني التواكل ، بالمعنى السابق ، (ابن الجوزي ص **270**) . ولكن عندما نعود الى كتب التاريخ ، نجدها تخبرنا بالدور العظيم الذي قام به التصوف في نشر الإسلام في آسيا وفي أفريقيا ، وغيرها من قارات العالم ، وهذا قمة العمل الهادف .

حركة التصوف الإسلامي من خلال تاريخه

تتابعت على التصوف الإسلامي مراحل مختلفة :

(1) القلم آية 4 .

(2) عبد الرحمن بدوي: تاريخ التصوف الإسلامي ، وكالة المطبوعات، الكويت ، ص 24 .

أ . من حيث التسمية

لم تعرف كلمة « تصوف » إلا مع القرن الثالث الهجري، قبل ذلك تتابعت على حركة التدين الإسلامي أسماء ، كما يقول القشيري : « إن المسلمين ، بعد الرسول ﷺ، لقبوا بالصحابة ، إذ لا فضيلة فوقها ، . ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة : التابعين لشرف هذه التسمية . ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين . ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين : الزهاد والعباد . ثم ظهرت البدع، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعى أن فيه زهادا . فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة» باسم «التصوف» . واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة) . [1]

ب ، من حيث الموضوع :

بدأت ظاهرة التصوف الإسلامي مع رسوخ مكانة الدين الإسلامي في صورة زهد وعبادة قوية . فكان المؤمنون بالرسالة المحمدية زهادا بأسلم معنى لصفة الزهد، وكانوا نتيجة لهذا الزهد أقوياء على نفوسهم، فلم يفتتنوا بمال أو جاه ، ولم يصرفهم زهدهم عن ممارسة الحياة الاجتماعية بمختلف أشكالها . استمرت ظاهرة الزهد خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ، ومن أشهر الشخصيات في تلك الفترة ، الحسن البصري (ت **110** هـ) ، ورابعة العدوية (ت**185**هـ) .

أما القرون الثالث والرابع والخامس من الهجرة ، فكانت بداية استعمال مصطلح «التصوف» . كما بدأ الصوفية في الكلام عن دقائق أحوال النفس والسلوك، وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم، فصار التصوف منذ ذلك الوقت علما للأخلاق .

وفي هذا العصر انتشر التصوف الغنوصي متمثلا في شطحات البسطامي (ت **264**هـ) والحلاج (ت **309** هـ) ، وانتشار فكرة الحلول والاتحاد . ومع النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كان التصوف السني قد ازدهر مع الغزالي (ت**505**هـ) الذي عمل على تصحيح التصوف الإسلامي مما لحق به من ممارسات وأقوال شطحية أسأت إليه . كما قام الغزالي بحملته المشهورة ضد الفرق الباطنية مما أدى إلى تحجيم

(1) الرسالة القشيرية : ج2 ص 551 .

دور هذه الفرق بشكل كبير جدا . وهنا نجد نقطة إيجابية تحمد للتصوف على اعتبار أن من قام بهذا العمل الجليل حمل لقب صوفي . في القرنين السادس والسابع الهجريين ظهرت طرق صوفية عديدة متأثرة بالتصوف السني الذي أرسى دعائمه الغزالي ومن قبله الجنيد (ت 297 هـ) منها الطريقة الرفاعية ، أحمد الرفاعي (ت 570 هـ) . والطريقة القادرية ، الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 651هـ) . والطريقةالشاذلية ... الخ .

وقد استمر التصوف الغنوصي في الوجود في الساحة جنبا إلى جنب مع التصوف السني . متمثلا في تصوف السهروردي المقتول (ت 549 هـ) . ونجد كذلك الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (638 هـ) وغيرهم كثير ، ولكنه في النهاية لم يصمد .

وبعد القرن الثامن الهجري إلى اليوم أصاب التصوف شيء من التدهور ، فاتجه أصحابه من الناحية العملية إلى أنواع من الطقوس والشكليات مما ساعد على إبعادهم عن جوهر الدين ، وسيطرت على عقول أصحابه أوهام المبالغة في كرامات الأولياء والشيوخ . وانتشار ظاهرة التبرك بالأضرحة وطلب العون من أصحابها الأموات ، مما ساعد على خلق بنية تفكير انهزامية متخلفة لدى المواطن العادي ، وهذا بدوره أدى إلى تدهور حركة التصوف اليوم .

هذه صورة سريعة خاطفة للتصوف اقتبستها من كتب التصوف . توضح لنا أن التصوف ظاهرة لا تخضع للمنطق ، غير ثابتة في شكلها ولا في طريقة تفاعلها مع الأحداث التي تعايشها . فقد رأيناه ، أي التصوف ، يحمل أسماء مختلفة ، (صحابي ، تابع ، تابع التابع ، عابد ، مؤمن ، زاهد ، وأخيرا صوفي) ، وفي تطوره التاريخي رأيناه يتبع الإسلام من منابعه السليمة ، ثم رأيناه يجنح عن الإسلام ، ويلجأ الى مصادر غير إسلامية ، ثم رأيناه يعود إلى مصادره الإسلامية ويحمل اسم التصوف السني ، ولكن مع الفارق بينه وبين الزهد في القرن الأول الهجري ، وهكذا . هذه الصورة العامة للتصوف تدعو الى التساءل : هل يستطيع التصوف اليوم أن يكون نافعا للإسلام المعرض للهجوم من أعداء أقوياء يملكون أقوى الأسلحة ؟ ويمارسون أشنع أنواع الحرب ضد الإسلام ؟ .

الإجابة : انطلاقا من وضعية التصوف كما رأيناها ، وانطلاقا مما قام به أصحابه من تحقيق انتشار الإسلام في كل من آسيا وأفريقيا . ومن رد الاستعمار الأجنبي عن أرض الإسلام ، وغير ذلك كثير من الإيجابيات التي تدفعنا للقول بكل ثقة إن في التصوف الإسلامي كثيرا من المبادئ الإيجابية التي تدفع المجتمع إلى الأمام .

اقتبس هنا عبارة للفيلسوف الإنجليزي المعاصر برتراند رسل التي يقول فيها : (وحدة التصوف مع رجل العلم تشكل أعلى مكانة مرموقة يمكن إنجازها في عالم الفكر) [1] لأصل إلى أنه لم تعد هناك وسيلة تمكن الإنسان المسلم من تحقيق كرامته في عالم تعتمد فيه القوة المعنوية على الأخذ بأسباب القوة المادية ، سوى الأخذ بأسباب القوة بجميع أنواعها : للسلم وللحرب . للسلم : كصناعة الدواء وصناعة الغذاء ... الخ . للحرب : بتوفير كل ما يساعد على الدفاع عن النفس في عالم، اشتد فيه الصراع وتنوع ، وأيضا الأخذ بمبادئ الإسلام الروحية التي يمثلها التصوف الإسلامي خير تمثيل .

الخلاصة

يعيش التصوف الإسلامي اليوم فترة ركود حضاري تحد من نشاطه ، بالرغم من شدة المصاعب التي يواجهها الإسلام ، من إرهاب وتفجيرات واستعمار ، يعمل على إعادة تشكيل خارطة دولة الإسلام .

لا شك في أن التصوف الإسلامي قوة روحية هائلة يملك من المبادئ الإيجابية ما يدفع لمجتمع إلى الأمام ، ولنا في هذا احتجاجات نذكر منها ما يلي :

التصوف الإسلامي ، في كثير من محطاته التاريخية ، انحرف عن الطريق السوي، وعلق به كثير من البدع والمساوئ ، الناتجة عن تأثره ببعض التيارات الخارجية مثل : الغنوصية ، الأفلوطينية المحدثة ، الديانات الوضعية الشرقية ، الرهبنة المسيحية وغيرها ، وهذا واضح تاريخيا .

يعتبر التصوف تجربة ذوقية فردية خاصة ، كما عرفه أصحابه ، لا تخضع للمنطق العقلي، لهذا فإنه ، بمجرد هبوب التيارات الفكرية المختلفة على الدولة الإسلامية نجده من أشد العلوم الإسلامية تأثرا بتلك التيارات الخارجية، فنتج عن ذلك نوع من التصوف الشاطح الغريب والمنافي للدين الإسلامي . مما دفع بعض الصوفية المعتدلين ، كالجنيد والغزالي من بعده ، لأن يرصدوا جهودهم لتصحيح انحراف التصوف عن ثوابت الدين الإسلامي، ودفع كثيرا من المخلصين للتنبيه إلى أخطاء الصوفية، فألف كثير من الكتب لهذا الغرض ، منها : كتاب (الرعاية لحقوق الله)

---

(1) رسل : المنطق والتصوف ، ص 4 .

للمحاسبي «ت **243** هـ»، وكتاب (التعرف لمذهب أهل التصوف) لأبي بكر الكلاباذي «ت **380** هـ»، وكتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي «ت **597** هـ»، وكتاب (الفتاوى) لابن تيمية «ت **728** هـ / **1328** م»

الحس الديني حس طبيعي في حياة الإنسان ، بدليل وجود ديانات وضعية متعددة غير الديانات السماوية الثلاث المعروفة . ولارتباط التصوف بالدين ، سواء منه السماوي أو الوضعي ، اعتبر التصوف ظاهرة دينية ، بالمعنى العام لكلمة «دين» والدليل على هذا أننا لا نجد حضارة من الحضارات ، بما فيها الحضارات القديمة التي ازدهرت قبل نزول الديانات السماوية الثلاث ، تخلو من ظاهرة التصوف بل إننا نجد تلك الديانات الوضعية ، التي غذت عند الإنسان القديم حاجته إلى الدين والتدين ، هي في جوهرها تصوفا بأتم معنى كلمة «تصوف» ، (كالبوذية عندما يصل صاحبها إلى درجة التنور) . هذه الديانات الوضعية هي أحد المصادر المؤثرة في التصوف الإسلامي فيما بعد ، ليصبح التصوف الإسلامي غنوصيا ، أو كما يسمى في كتب التصوف «التصوف الفلسفي» .

وإن العالم الإسلامي اليوم يتعرض لمضايقات متنوعة الأشكال من حصار اقتصادي ، كما حدث لليبيا بالأمس، وسوريا اليوم ، ولحروب في ظاهرها حرب على الإرهاب ، الذي لم يحدد تحديدا واضحا إلى اليوم ، بل في البداية كان الاتهام موجها بشكل واضح للإسلام بأنه دين إرهابي ، ثم لاحظنا ، بسبب شدة الاحتجاج على هذا الوصف الغرب يتراجع عن اتهامهم ذاك ، وتقديمهم الاعتذار، من قبل الرئيس الأمريكي، الذي صرح بأنه يعتبر الإسلام دينا عظيما . وأن الدين الإسلامي قام بدور عظيم في تاريخه ، فقد كان في ساعات الخطر ، هو الصيحة التي تتجمع تحت لوائها القوى الشعبية ضد العدو الذي يهدد القيم والمقدسات .

إذاً نخلص من هذا كله الى أنه ما دام التصوف الإسلامي ، كما سبقت الإشارة ، قوة روحية لا يستهان بها . ومادام التصوف الإسلامي قابلا للتشكل حسب المواقف . ومادام العالم الإسلامي اليوم خاضعا لحرب قذرة . وما دام التصوف خلقا ، وفلسفة حياة . فإن على التصوف أن ينهض للدفاع عن الإسلام ، وخير وسيلة يتبعها هي دفع رجال الدين، والدعاة للقيام بهذه المهمة .

فإن هذه الفلسفة تعتبر مناخا خصبا لهذا الإنسان ، لأن يكون داعية مخلصا لله أولا ، وللوطن وللإسلام ثانيا ، ويكون قدوة حسنة للناس قولا وفعلا .

إن التصوف كخلق لا يمكن أن يكون تـصوفا يـدعي صـاحبه الاتحـاد بـالله ، أو حلول الذات الإلهية في الكون ، أو الزهد المنافي للطبيعة البشرية ، أو انعزاله عن البشر ، بل التصوف بوصفه خلقاً ، لا يكون إلا بتحقيـق أخـلاق الإسـلام كمـا هـي في الكتـاب الكريم .

إننا مع تصوف معتدل ومسئول يـوازن صـاحبه بـين الروحانيـات والماديـات في الحياة الدنيا ، بين العمل والعبادة ، بين احترام ما لله وما للعباد . . . الخ .

وهذا ما يسوقنا إلى طرح بعض التوصيات بهذا لخصوص .

- تكريس الاهتمام بدراسة التصوف في ليبيا ، بشكل خاص ، والتـصوف في العـالم العربي وفي أفريقيا بشكل عام ، لمعرفة ما لحق به من تشوهات لإصلاحها .
- إدخال مادة التصوف كمادة معتمدة في المناهج الدراسية ، خاصة لطلاب الفلـسفة وطلاب الدراسات الإسلامية .
- وتوجيه الدراسات الصوفية ، بالنظر إلى مشاكل العصر ، لجعل التـصوف يـساير روح العصر ، ولا يخرج عن الإسلام الصحيح حتى يكون تصوفا فاعلا ينتفع بـه في رد خطر كثير من المشاكل التي تواجهها الأمة الإسلامية ، وأكـبر خطـر يهـدد الإسلام بشكل عام ، والعرب بشكل خـاص ، هـو مـا يعـرف بمـشروع الـشرق الأوسط ، وما ينتج عن هذا المشروع من حروب تعيشها المنطقة ، ونعيش اليـوم تطبيقه على أرض الواقع بمساعدة بعض الدول العربية الإسلامية .

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن الجوزي ، تلبيس إبليس ، دار العلم ، لبنان ، **1403** هـ .
2. أبو القاسم القشيري ، الرسالة ، تح . عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، مصر ،
3. أبو بكر الكلاباذي ، التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الثقافة الدينية، مصر .
4. أحمد أحمد الزروق ، قواعد التصوف ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، **1979** .
5. إبراهيم محمد ياسين ، حال الفناء في التصوف الإسلامي ، دار المعارف ، مصر **1999** .
6. أبو الوفا التفتازاني ، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دارالثقافة للطباعة ، القاهرة **1979** .
7. إدريس محمود إدريس ، مظاهر انحرافات الصوفية ، مكتبة الرشد ، الرياض . **2000** .
8. ارنولد نيكلسون ، التصوف الإسلامي ، تر . أبو العلا عفيفي ، لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، **1969** .
9. السايح علي حسين ، لمحات من التصوف وتاريخه ، الدعوة الإسلامية ، طرابلس **1994**
10. زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، دار الجيل ، ب . ت .
11. صابر طعيمة ، التصوف والتفلسف ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، **2005 .**
12. عبد الرحمن بدوي ، تاريخ التصوف الإسلامي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، **1975** .
13. عبد القادر محمود ، الفلسفة الصوفية في الإسلام ، دار الفكر العربي ، مصر ، ب . ت .
14. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الأفريقية، مدبولي .

15. علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعرفة الجامعية ، ط7 2000 .

16. مجدي محمد إبراهيم ، التصوف السني ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 2002 .

17. محمد أبو سعدة ، في نقد الصوفية ، القاهرة 1998 .

18. معن زيادة ، الموسوعة الفلسفية .